

سعادة لم تتم

بقلم عبد الوهاب الخطيب

صديق :

تسألني مابالك كثير الاطراق ، دائم التفكير ، حائر البصر ، مشرد اللب ، بادية عليك علام السقم ؛ كأنك تعالج كتمان أمر في نفسك شديد على لسانك إعلانه . أو تشكو داء لا قبل لمثلك باحتماله . وتعلم يا صديقي أنني كنت قبل ذلك مرحاً غاية المرح ، طروباً نهاية الطرب ؛ وأنني كنت في مرحى وطربى لا أخرج عن كوني شاباً سعد حقبة من الزمان بالأمل الباسم وعين الزمان نائمة — والأمل جذوة الشباب وشعلته ، وروحه وقوته ، ومرحه وطربه ، ولهوه ولعبه — فكنت بما بين ضلوعى من أمل أجرى مع الشباب الى تلك الغاية التي رسمتها لنفسى ، مستسهلاً في سبيلها وراء الأمل كل صعوبة أمام الشباب ، حتى إذا كنت من آخر المضمار قاب قوسين أو أدنى ، فتح الدهر عينيه ، ثم ثأب وتمطى ، ثم التفت إلىّ ونظر نظرة أنت تعلم ماذا كان وراءها ! يا ويحى ! لقد تألق في مكروهى القدر ، أخ في الورد من أيامه بالورد عثر ، وعم ظلمه المشيب ففر منه ونفر ، وأمل على آثارها تحطم واندر . ثلاثة أشباح كانت صروح سعادة ومنتديات أحلام ، لم يفارق العين خيالها ، ولم يهدأ القلب من طعناتها ، ولم أفتأ أذكرها من حين الى حين .

قلت قضاء حرم ، وأمر من الله نفذ ، لاراد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، واستعنت الله على هذه النوازل فأعاننى ، واستهديته فهدانى . وإن كانت في القلب جمرات من الأسى ، مغطاة برماد من الصبر خفيف ضئيل . ولبثت على ذلك برهة كانت أقصر من عمر آمالى وسنات أحلامى ، لم أشعر فيها بشيء من معانى الحياة ، اللهم إلا بذكرى في قلبى تتمثل ، وخيال أمام عيني يتنقل . وكنت مع ذلك أرى كما يرى الناس ، وأسمع كما يسمعون ، وأسير كما يسرون . غير أنى كنت أنظر بعينين فيها انكسار من بقايا آثار المدامع ، وأسمع بأذنين فيها رنين من صدى تلك الفجائع ، وأمشى على قدمين

يؤودها حمل هذا الهيكل السقيم الناحل المهدم ، مشى من حنت ظهره السنون ، وأثقلت كواهله الليالى والأيام ! ثم رأيتها لأول مرة ، وقد ألقى عليها بارى النسم ثوبين ضافيين من جمال وجلال ، فأحسست نحوها بحنان كأنه رقة العشق ، سرى في دى سريان الكهرباء فى أسلاكها ، ومكثت طول يومى أفكر فيما سيصير اليه أمرى بعد تلك النظرة التي كانت توفيق أقدار لأقدار .

يا لله يا صديقي ! لشد ما ملكت على إحساسى وشعورى فى المرة الثانية ؛ والقلب الهواء تجد فيه كل غيداء فراغاً لها . وكان قلبى لا يزال واقفاً على أطلال الأمل ، يندب شجوه ويبث لوعته . فنظر اليها نظرة كنظرة إبراهيم فى النجوم وقال إني سقيم . وكأنما أرادت أن تداويه كما يتداوى شارب الخمر بالخمير ، فرنت اليه بنظرة جمعت شعبه ولت شتاته ، وأطفأت لهبه وأحيت مواته ، فالتفت فى مثل انكسار جفونها ، ورفع الراية بالاذعان فى شكر ، والتسليم فى طاعة . ثم كان بعد ذلك ما كان .

أخذ فكرى يسبح رويداً رويداً فى ملكوت لانهاية له من الخيال وراء هذه الظاهرة الغريبة التي ملكتنى ، وأصبحت أشعر بحياة جديدة فيها معنى حائر بين سعادة لانهاية لها ، ذلك أنى احتويتها فى جوانح القلب ، واتخذت من عبقرى جمالها ريشة لعبقرى خيالى ، فكان لا يرتسم فى ذهنى معنى إلا وفيه من حسننها مثال ، ولا يقع نظرى على شيء إلا وفيه منها رونق بهجة أو شعاع جمال ، تلك سعادة علوية ساحرة قاهرة ، تغطى على كل سعادة فى الأرض لتظهر هى فى صورتها البديعة اللطيفة فتنة لمن يراها أو يحس بها من الناس أجمعين .

لا أستطيع يا صديقي أن أصفها لك ، فهى روح ، والروح لا توصف ، وهى حياة ، والحياة لا يمكن إنساناً فى الوجود تكييفها ، وهى مع هذا وذاك سر لا يدركه غيرى ، ولا يحسه أحد سواى ، وكل ما أستطيع أن أقوله لك إنها مشرقة الطلعة ، معتدلة القامة . مطمئنة السير ، فيها لمحات محدودة من الانسانية العالية السامية . هبطت بها الى هذا الملاء الذى نعيش فيه كدليل حسى على أسمى مراتب الجمال وأتم مظاهر الجلال .

لقد مضت على يا صديقي مدة تزيد على ثمانية عشر شهراً ،

لى من أمرى هذا رشداً . ولعله يكون قريباً والسلام
صديقك جمال
١٤ - ٩ - ١٩٣٢

عزيزتى :

عشاً كنت أخادع قلبى بالسلو عنها أو الافلات من برائى
حبها بعد أن جاءنى خطابك الأخير ، فأنها لم تدخل قلبى إلا بعد
أن صهرته آلام الحياة وأحزانها ، وأصبح نقياً شديداً الايمان
بقضاء الله وقدره ، صادق الاحساس بما يجرى حوله فى الحياة من
مظاهر خادعة وأخرى مخدوعة ، مطمئناً الى الحياة من حيث هى
وجود ناقص حيناً وتام أحياناً ، عالماً أن لكل شىء نهاية
لا بد وأن ينتهى اليها

ولقد أيقنت من يوم أن أحسستها تجرى فى دى أن الله قدر
لى أن أحبها ، فأحببتها لنفسى ، وأحببتها لأن الله أراد ذلك ، وكان
قلبى صادق الحس بها ، فلم تكن خادعة ولم يكن مخدوعاً ، وكان
وقوراً حكيماً فاكتمت بأن يحبها هو من غير أن يتساءل ما هى
ميوها نحوه ؟ وهل تعلم أن فى العالم المحيط بها قلباً يرفرف عليها
فى غدوها ورواحها ، فى مسائها وصباحها ، فى يقظتها ومنامها ،
فى دمعها وابتسامها ؟ ومن هو صاحب هذا القلب ؟ وبعد ذلك
اطمأننت الى أن الحياة من حيث هى وجود ناقص ، هى تلك
الساعات التى لا تجرى فيها المدامع من شوق ، ولا تسيل فيها
النفوس من ذكريات وحنين ، وأيقنت بعد هذا وذاك أن الحب
كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها ، ولا يقال فى نقطة منها إنها
نهاية إلا قيل فى نفس الوقت إنها بداية

لقد ذهبت بك الظنون كل مذهب فى أمرى ، بل أيقنت
أنك قد أصبت الرمى حين أرسلت إلى خطابك المفقوق ، وإنى
أقول لك بلغة يقطر منها الشكر إن خطابك كان فيه الشفاء لقلبى
من الناحية التى تريدنيها ، وإنى ما سكنت هذه المدة إلا لأختبر قلبى
وأستشير عقلى ، أما القلب فلم يجد عنها حولا ، وأما العقل فأشار
بأخذ رأيك فيها من جهة ميوها نحوى ، فان كنت عندها شيئاً
فابسمى يا دنيا ، وأشرق يا أمل

كنت فى بعض الأيام أراها ، فيحترق قلبى من الشوق اليها
وهى أسمى ، ولا يكاد نظرى يلتقى بنظرها حتى ينقلب إلى خاسئاً

لم أحاول فيها أن أطرق سمعها - على قربها منى - بكلمة واحدة
تفهم منها ما يكنه قلبى من الحب لها والوجد بها ، وكم تمنيت أن
أسمع من فمها الرقيق السامع الحالم كلمة واحدة ، فلم أجد إليها من
سبيل ، كما أنى لم أملأ منها عيني حياء وخجلاً ، واكتفاء
بصورتها المرسومة فى حبة القلب وفوق صفحات الخيال ، على
أن طريقى كانت تتحول تبعاً لها على غير قصد منى ، حتى إذا لم
يكن من توديعها بالنظرة بد ، وضعت يدي على صدرى كمن يتلمس
شيئاً فقده ، وما فقدت إلا قلباً تقطر كالدمعة الحمراء من بين
أهداب الجفون .

لا يزال صولجان المقادير يقذف بقلبى فى واد من الذكريات
القديمة ذى ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغنى من اللهب ، كلما
طال على الأمد فى لقاءها ، والآن يا صديقى وقد مضت على مدة
تزيد على شهرين لم ألحها فيها لحظة واحدة ، أقول لك إن هذا هو سر
اطراقى وتفكيرى ، فلا تسألن عن شىء بعدها حتى أحدث لك
منه ذكراً

صديقك جمال

٢١ - ٧ - ١٩٣٢

صديقى :

أوقد فعلتها ؟ يا قلبى !! ما كان أحرصنى على الاحتفاظ بالسر
وكتمانه ، لولا أننى أعتقد أن لى من قلبك وإخلاصك ووفائك
ما يجعلنى أستريح إلى أن أبوح لك (فى شىء من التحفظ كثير
وبعد مضى زمن على كتمان هذا السر طويلاً) بما كنت أقاسيه
آناء الليل وأطراف النهار من لوازع قلبى ، وزفرات أنفاسى ودموع
عيونى ، ولكن غفر الله لى ولك يا صديقى ما تقدم من ذنبنا وما
تأخر ، فان هذه القلوب الطاهرة البريئة ، المكتهلة فى شبابها ،
الرزينة فى حبها ، لا يمكن أن تتصل فى يوم من الأيام بغير ما يماثلها
شرفاً وطهراً ، ورزاة ونبل .

ولئن وقع خطابى فى يد غير يدها ، ورأته عين غير عينها ،
وطرقت نبراته الحزينة سمعاً غير سمعها لخطأ فى الاسم كما يقال ،
فانى لسعيد مغتبط ، هنىء ملء قرارة نفسى وطوايا فؤادى ، ذلك
أن خطابى وقع فى يد شريفة وعند قلب ذى إحساس سام ،
يعرف المعنى المرتسم فيه كما أريد ، وأغلب الظن أن الله قد يهين

كنت إلى الأسبوع الماضي فارغة الفؤاد ، وكنت على أن
أطلب إليك الحضور لأناقشك موضوعاً خطيراً قرأته ليلة أمس
في رواية «مجنون ليلي» وهو لماذا حكم على ليلي بالموت قبل قيس؟
الأنها كتبت حبها؟ إن كان الأمر كذلك فاني - خوفاً على حياتي
الشابة - أقول لك يا عزيزتي - واثقة منك كل الوثوق - إنني
بدأت أشعر بقلبي يميل رويداً رويداً إلى شاب كان يطالعني بعض
الأحيان كثيراً حزينا كأنه دفن قلبه بيده ، رأيته على حالته تلك
منذ ثلاثة أعوام ، ويخيل لي أنه محب يكرم حبه أيضاً .

ألا ما أسعد تلك الفتاة التي تتيح لها المقادير مثقال حبة من
احترام هذا الفتى النبيل !!

ضمي يا عزيزتي بجانب هذه الجملة سعادة من استولت على
قلبه كله .

أرجو أن أراك يوم الخميس المقبل وإلى اللقاء . م

٢ أبريل سنة ٣٤ اختك فتحية

وفي عصر الخميس تلاقت الصديقتان في منزل فتحية هانم ،
وكان بيد الأنسة الزائرة إحدى جرائد المساء ، فغذب نظر فتحية
إليها صورة شاب غضير الشباب في صدرها فتناولت الجريدة من
صديقته ورأت الصورة وقرأت تحتها ما يأتي :

(المرحوم جمال الدين افندي الموظف بوزارة المالية ، علقته
المنون وهو في بريق شبابه)

فامتقع لوننها وأدركتها حال شديدة من الدهول والحيرة ، فأقبلت
عليها صديقته تسألها ما بها ، فقالت لها وهي تشير إلى الصورة
الضاحكة ، والخبر المبكى :

أمل لم يزدهر ، وناشئة حب لم تبق ، وسعادة مرجوة لم تتم !
ثم ألفت في يدها مجموعة من الرسائل البالية ، وقالت والدمع
يسيل على خديها ، ومرارة الأسى تجري على شفيتها : اقرئي !

عبد الوهاب الخطيب

فهرس المجلد الأول من السنة الثانية

طلب اليينا كثير من قرائنا أن نجعل للمجلد الأول من السنة
الثانية للرسالة فهرساً خاصاً بمجلده معه . ونزولاً على إرادتهم سنتحين
الفرصة القريية لطبع هذا الفهرس وتوزيعه

وهو حسير ، وكنت أستجمع قواي كلما رأيته لألقى إليها بالتحية
فيحتبس لساني من العي - لا طبيعة فيه ولكن جلالاتي لا أدري
له مدى ، وجمالاً لا أعلم له غاية ، وسحراً بين هذا وذاك قوياً
شديداً ، كانت ثلاثتها تقيد لساني عن النطق تقييداً اعتبر نفسي
منه في حد من السعادة محدود - ولقد كان الجو المحيط بنا يمرح
في عبق من أنفاسها وتحايا قلبي ، غير أنها كانت كالزهرة تفوح
رائحتها عند الصباح ، وكان قلبي كعود الصندل ، كلما لامسته
النار فاح .

مرت تلك الأيام كأحلام الكرى لذيدة مستعذبة ، قصيرة
كالنظرة ، طويلة كالعبرة ، وخلفتها أيام أعانى من مرها ما أعانى !
فلقد سافرت إلى البلدة لقضاء بضعة أيام هناك ، وكأنما كانت
الأسقام مني على ميعاد :

يا ويح أهلي يروني بين أعينهم على الفراش ولا يدرون مادائي
ومكثت هناك بدل سبعة الأيام التي صرح لي بها سبعة عشر
يوماً . ثم عدت إلى القاهرة وفارقت الحى الذى ولد فيه هواي
وترعرع ، إلى حيث أنا الآن ، وهأنذا أبعث إليك ما منه وراء قلبي
بتحيات كأضغاث الرياح لا تكاد تبلبل بندى المدامع حتى تجف
بزفرات الأنفاس ، والسلام م

جمال فبراير سنة ٣٣

صديقي :

كتب أحد الحكماء إلى صديق له يقول «يا أخى إن أيام العمر
أقل من أن تحتمل الهجر» وكنت قرأت فيما قرأت كلمة للامرئين
يقول فيها «إن الحب القوى المظمئن صبور» فأنا بين هذين في
حيرة ، ترى متى أهتدى إلى سبيل ؟ م

جمال مارس سنة ٣٤

أختي سعاد :

لماذا لا تكونين بجانبى في كل لحظة كما كنت من عهد قريب ؟
أنا في شدة الشوق إليك وإلى سماع حديثك العذب الجميل ، وكم
أود أن أفضى إليك بسر يحيش به صدرى ولا يمكن أن ينطق به
لساني لغيرك .